كلمة في البداية

مدن الساحل «المختلطة»: التهويد ومواجهته

المقدمة

يركز العدد الحالي على الاستيطان المتجدد في قلب مدن الساحل الفلسطينية التي هُجر منها معظم أهلها الأصلانيين عام ١٩٤٨ وبقيت فيها أقلية فلسطينية عربية تحاول الحفاظ على هويتها، وتشكل حارسًا لذاكرة المكان: يافا وحيفا واللد والرملة وعكا. في العام ٢٠٢١، كشفت هبة أيار وما رافقها من مواجهات في الداخل الفلسطيني عمق التصدعات القومية والاجتماعية والاقتصادية التي تشهدها المدن الساحلية الفلسطينية التي يطلق عليها في الخطاب الإسرائيلي "المدن المختلطة"، نظرًا لأنه يسكنها عرب ويهود يُسوّق سكنهم المختلط كتعبير عن التسامح والحياة المشتركة الهادئة. تفاقمت خلال العقدين الأخيرين هذه التصدعات بسبب التضييق الإسرائيلي المنهج على الفلسطينيين في المدن الساحلية، وهو تضييق تتقاطع فيه أنشطة الأنوية التوراتية الاستيطانية (التي تنتهج سياسة استيطان القلوب)، ورأس المال اليهودي (الذي ينتهج سياسات الاستطباق الزاحف creeping gentrification) والبلديات الإسرائيلية (التي تتحكم بالحق في السكن) والمستوى السياسي الذي يخطط من أعلى. يمارس كل هؤلاء اللاعبين، كل من موقعه، سياسات تهويدية تدفع بشكل مباشر أو غير مباشر لترحيل الفلسطينيين من هذه المدن أو على الأقل تحويل حياتهم الاجتماعية إلى حياة غير ممكنة.

إن العودة للاستيطان الأيديولوجي الصهيوني داخل إسرائيل من خلال الأنوية التوراتية التي ترسلها الحركة الاستيطانية في تلال الضفة الغربية المحتلة لهو نشاط ذو دلالة مهمة جدًا، ويكشف بدون موارية جوهر الصهيونية الاستيطاني: الاستيلاء على المزيد من الأرض، سواء كانت أراضي محتلة داخل الضفة الغربية والقدس أو داخل دولة إسرائيل نفسها. في هذا السياق، ينتقل النموذج الاستيطاني الذي طُور في كريات أربع المقامة على أراضي الخليل، على سبيل المثال، ليتحول إلى نموذج للاستيطان في مدن الساحل الفلسطيني. يشير استيراد هذه الممارسات الاستيطانية من الضفة الغربية إلى تسييل «الخط الأخضر»، ويعني أن عملية الاحتلال متبادلة: إسرائيل تحتل الضفة وتستوطن تلالها، في المقابل تعود الحركة الاستيطانية بدورها لتحتل إسرائيل. إن استمرار الوجود الفلسطيني في المدن الساحلية يوحي للبعض في اسرائيل وكأن عملية احتلال هذه المدن عام ١٩٤٨ لم تنته بعد، وأن هناك حاجة لإثبات الوجود اليهودي فيها من جديد، ما يدل على مرحلة جديدة في طبيعة الصراع بين الفلسطينيين وإسرائيل: إن سؤال فلسطين أصبح سؤالًا داخليًا في إسرائيل، ومع انهيار الحدود وبهتان الخط الأخضر، فإن الصراع حول جوهر إسرائيل ومستقبل فلسطين تحولا ليكونا وجهين للصراع نفسه. فبعد أن هزمت إسرائيل العواصم العربية عادت لتبحث عن جوهرها لتجد فلسطين تنتظرها هناك. ومن هنا، يأتي العدد الحالي من مجلة «قضايا إسرائيلية» بعنوان «مدن الساحل المختلطة: التهويد ومواجهته».

تحت محور العدد، يأخذنا أمير مخول في مقالته إلى حيفا ليسلط الضوء على التحوّلات التي تشهدها المدينة في ظل تراجع الحركة السياسية الفلسطينية المنظمة في المدينة الأكثر تسييسًا. بعد نقده للمفاهيم المستخدمة في توصيف حيفا باعتبارها مدينة «مختلطة»، يتوقف مخول عند سياسة «التعايش» باعتبارها أداة ضبط وهندسة سياسيّة. أما ميخال هاس (Michal Hass)، فتنظر في مقالتها القيمة إلى عملية المحو المستمرة في مدينة يافا حتى اليوم. بيد أن المحو في عصر النيوليبرالية يتخذ شكلًا أكثر وحشية من خلال إعادة «تأهيل» الأحياء القديمة و«تجديد» المناطق الحضرية بحيث تتقاطع هياكل الاستعمار مع سياسات السوق النيوليبرالية. تُستعرض هذه التقاطعات بشكل أكثر تفصيلًا في مقالة ياعيل شمرياهو ـ يشورون (Yael Shmaryahu- Yeshurun) ودانيئيل مونترسكو (Daniel Monteresco) التي تركز على تاريخ الأنوية التوراتية في مدينة يافا. من خلال بحثهما المستمر في أنشطة الأنوية التوراتية، تستخلص شمرياهو وزميلها منترسكو بأن هذه الأنوية أفرزت طرازًا جديدًا من الاستطباق القائم على التعصب القومي، الذي يتمايز عن الاستطباق الليبرالي المعهود.

وتحت محور العدد أيضًا، تقترح علينا يارا السعدي استخدام «الهدم» كمنهج بحثي للكشف عن مصائر المباني الفلسطينية القديمة التي هُوّدت بطرق مختلفة. لدى السعدي، فإن الهدم كمنهج بحثي يكشف عن هياكل العنف المستخدمة ضد الفلسطينيين، ويوفر وسيلة لتتبع وربط محاولات محو الحيز الفلسطيني على الرغم

مـن اختـلاف هويـات المسـتعمرين وسياسـاتهم. أمـا محمـد حليـم فيأخذنـا في مقالتـه الشـيقة إلى أحـد مقاهـي مدينـة اللـد، التـي تشـهد واحـدة مـن أهـم مشـاريع الاسـتيطان في القلـوب وأكبرهـا مـن خـلال الأنويـة التوراتيـة التـي «تحتلهـا» وتعيـد فـرض السـيطرة الصهيونيـة عـلى أحيائهـا بأسـلوب يمـزج بـين العنـف والتخطيـط. أمـا مسـاهمة خلـدون البرغوثـي فتركـز عـلى «مسـيرة الأعـلام» التـي تسـييرها الحركـة الاسـتيطانية في شـوارع مدينـة القـدس كل عـام إحيـاء لذكـرى احتـلال الشـطر الشرقـي، و»جبـل الهيـكل»، ليـسرد لنـا السـياق التاريخـي لـولادة مسـيرة الأعـلام، والتحـولات التـي شـهدتها هـذه «الاحتفاليـة الصهيونيـة الدينيـة» وصـولًا إلى شـكلها الحـالي.

بالإضافـة إلى المحـور الـذي يركـز عـلى مـدن السـاحل الفلسـطينية، يضـم العـدد الحـالي مجموعـة مميـزة مـن المسـاهمات المتنوعـة الأخـرى. في مقالـة نوغـا وولـف (Noga Wolff) المترجمـة عـن الإنكليزيـة، تركـز المؤلفـة عـلى فصـل إسرائيـل التعسـفي بـين تدريـس الهولوكوسـت وحقـوق الانسـان. بينمـا أن الهولوكوسـت مـا كانـت لتحـدث لـولا الانتهـاك الصريـح لحقـوق الإنسـان، والموافقـة عـلى هـذا الانتهـاك مـن السـلطات التـي سـمحت لنفسـها بقتـل اليهـود وحرقهـم وتشريدهـم، إلا أن إسرائيـل تسـتثني أي نقـاش حقيقـي لحقـوق الإنسـان أثنـاء تدريسـها للهولوكوسـت، الأمـر الـذي يحـرم الطـلاب مـن القـدرة عـلى فهـم الإمكانـات القمعيـة المدمـرة للأنظمـة السياسـية الحديثـة (مثـل إسرائيـل)، التـي يعيشـون داخلهـا، وبالتـالي يصعـب عـلى دارسي الهولوكوسـت نقـد سياسـات إسرائيـل تجـاه الفلسـطينيين. أمـا موشـيه بهـار (Moshe Behar) وتسـفي بـن دور (Zvi Ben-Dor)، فيعـودن مـن جديـد لطـرق «المسـألة الشرقيـة» داخـل الصهيونيـة في أعقـاب معـرض لتاريـخ اليهـود الشرقيـين في باريـس. في رفضهـم للمعـرض الـذي يطبـع دولـة إسرائيـل، يعيـد المؤلفـان تذكيرنـا بالتاريـخ الحقيقـي لليهـود الشرقيـين باعتبارهـم ضحيـة أساسـية، وليـس ثانويـة، للاسـتعمار الاسـتيطاني الصهيونـي. ويقـدم وليـد حبـاس مقالـة نظريـة - منهجيـة حـول نظريـات الحـدود (border studies) ونظريـات مناطـق الحـدود (borderland studies). تتخـذ المقالـة شـكل مراجعـة أدبيـات في محاولـة لتوسـيع النقـاش حـول علاقـات المسـتعمَر-المسـتعمِر في الحالـة الفلسـطينية مـن خـلال الاسـتفادة مـن الأدوات التحليليـة وترسـانة المفاهيـم النظريـة التـي تقترحهـا هـذه الدراسـات.

ويضـم العـدد بـين صفحاتـه زاويـة للأرشـيف أعدهـا مالـك سـمارة مـن محـاضر محادثـات ورسـائل قديمـة بـين براندايـس، وبلفـور، وودرو ويلسـون، وجـورج غراهـام ليكشـف الضغوطـات الأميركيـة عـلى بريطانيـا للموافقـة عـلى ضـمّ نهـر الليطانـي وجبـل الشـيخ إلى إسرائيـل. يـورد العـدد التعليـق النقـدي الـذي وضعـه خالـد حورانـي عـلى كتـاب محمـد «جبـالي مصيـدة المـكان: دراسـة نقديـة لحقـل الفنـون التشـكيلية في إسرائيـل» الـذي صـدر عـن مركـز «مـدار» في أيـار ٢٠٢٢. بالإضافـة، يضـم العـدد زاويـة مكتبـة تحتـوي عـلى أهـم الإصـدارات الإسرائيليـة، بالإضافـة إلى زاويـة حـول الأدب الصهيونـي.

رائف زريق